المحاضرة السادسة/ قلعة بنو حماد، وبجاية ومكانتهما العلمية والأدبية:

أوّلا/ القلعة: أسّسها حماد بن بلكين سنة 398هـ في مكان يدعى قلعة أبي الطويل جنوب برج بوعريريج، ولم تفتأ أن ازدهر عمرانها وكثر سكانها، وغلبت أشير في حضارتها، وكثر الوافدين عليها من العلماء والتجار. يقول البكري فيها: وقلعة أبي الطويل قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة وتمصرت بعد خراب القيروان، وانتقل إليها أكثر أهل إفريقية، وهي اليوم "بالقرن الخامس" مقصد التجار وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر وسائر بلاد المغرب وهي اليوم مستقر مملكة صنهاجة، ودامت في ازدهارها إلى أن خرّبها الموحدون سنة 547هـ.

ونبغ بها كثير من الأعلام أمثال: ابن النحوي المتوفي سنة 515هـ، وابن حماد المؤرخ وآخرون كثيرون نجد أسماءهم عند تراجم بعض الشيوخ ولكن لا نجد لهم تراجم خاصة بهم.

وقد ازدهر الشعر في هذا العصر أكثر مما كان عليه في عهد الأغالبة، واتسعت موضوعاته وتعددت أغراضه من وصف وغزل وفخر ورثاء ومدح وعتاب وهجاء وخمريات وغيرها.

وأهم الموضوعات التي جدّت فيه، ولم تكن في العصر السابق هي:

أ/ القصص الشعري عند قاضي ميلة، وكان يسلك فيه مسلك ابن أبي ربيعة.

ب/ شعر التوسلات عند ابن النحوي القلعي المتوفى سنة 513هـ، ومن قصائده في الموضوع قصيدة المنفرجة ومطلعها:

اشتدّي أزمة تنفرجي قد آذن ليلك بالبلج

ج/ الموشحات عند يوسف بن المبارك، وكان شاعرا موشحا، وله مدائح في بني حماد.

ثانيا/ بجاية: أسّس الناصر مدينة بجاية سنة 460هـ على مقربة من صلداي الفينيقية، ثم انتقل إليها، ورغب الناس في سكناها برفع المكوس عن أهلها وجلب المرافق إليها. قال الإدريسي عنها: مدينة بجاية هي مدينة المغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد والسفن إليها مقلعة وبها القوافل منحطة والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة والبضائع بها نافقة وأهلها مياسير، وبها من الصناعات والصنّاع ما ليس بكثير من البلاد، وأهلها يجانسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء والمشرق، وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال المقنطرة ولها بواد ومزارع، ثم يقول: وبها دار صناعة لإنشاء الأساطيل ومعادن كثيرة، وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة.

ودامت بجاية في حضارتها وازدهارها إلى أن احتلها الإسبان سنة 915هـ، فتدهورت أحوالها وتراجع عمرانها.

وأمّا ما أنجبته من علماء وأدباء فنذكر:

1- أبو حفص عمر بن فلفول: من شعره:

قالوا نأى عنك الحبيب فما الذي تراه إذا بان الحبيب المواصل؟

فإن أنت أحببت التصبر بعده ولم تستطع صبرا فما أنت فاعل؟

2- ابن أبي المليح الطبيب: له قصيدة عيدية في الأمير عبد الله بن عبد العزيز الحمادي يصف جنائبه وقضاءه حق العيد واجبه:

وجالت به جرد المذاكي كأنها عذارى ولكن نطقهن تحمحم

بصفراء كالتّبر العتيق صقلية ودهماء يتلوها كميت وأدهم

3- أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن زكريا القلعي الأصم: له قصيدة ميمية مدح فيها بني الأشقر الطرابلسيين:

ترى فاض شؤبوب من الودق ساجم وأومض مشبوب من البرق حاجم؟

وماذا الندى والوقت بالصيف حائم وماذا السنا والجو بالليل فاحم

4- علي بن الزيتوني الشاعر: من شعره:

نهاه عن محارمه نهاه وقرّبه لخالقه تقاه

وقال: الله ليس سوى ربّ ولا لشريعتي أحد سواه

5- يوسف بن المبارك: من شعره في مدح بني حماد:

هناكم النصر ونيل النجاح في يومكم هذا بسمر الرماح

فأنتم الصيد الكرام الألى شادوا العلا بالنائل المستماح